

شيخ المستشرقين جبريلي

(١٤١٧ / ١٣٢٢ هـ)

كنت أصيخُ ليلة الجمعة الثالث من شهر شعبان ١٤١٧ هـ (١٣/١٢/١٩٩٦ م) لاستماع المذيع، فوقع في سمعي نبأ وفاة شيخ المستشرقين (فرانيسكو جبريلي) الإيطالي، استرعى سمعي الاسم، فليست هذه المرة الأولى التي أسمعها، فتذكرت أنني قد اجتمعت بالرجل، واستقبلني استقبالاً كريماً حين زرت مدينة (رومة) أفلا يجدر أن أقابل هذا النبأ بكلمة وفاء؟، وما أقلها بالنسبة لعالم جليل أحسن استقبالي، وازددت بمعرفتي إياه ما أنا بحاجة إلى استزادته من علم ومعرفة!! لقد كان الأستاذ جبريلي واسع الاطلاع على التاريخ العربي الإسلامي، بجميع فروعها، وكان من ذوي الاختصاص في الآداب الشرقية، كالعربية والفارسية والتركية، كما كان شديد الإعجاب بالبطل العظيم صلاح الدين الأيوبي، الذي حرَّرَ بيت المقدس، وذا تقدير له، ولحنكته السياسية، وما يتصف به من سماحة الأخلاق وسموها أثناء كفاحه حتى مع أشد أعدائه. وكان من أبرز تلامذة الأستاذ (كارلُو نَلِينُو ١٢٨٨ / ١٣٥٧) المستشرق المشهور، الذي كانت محاضراته في الجامعة المصرية في أول إنشائها عن «علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى» كانت محاضراته هذه من أهم المصادر في موضوعها، وقد عُرِّبَتْ وطبعت في (رومة) في أربعة أجزاء، ودرَّس في كلية الآداب في تلك الجامعة تاريخ اليمن، وقام بتدريس تاريخ الإسلام في جامعة (رومة)، وابنته الأستاذة (ماريا نَلِينُو)^(١) مستشقة معروفة متخصصة في الأدب العربي، وقد جمعت «شعر النابغة الجعدي» ولها أبحاث

(١) توفيت منذ بضع سنين.

في ذلك الأدب، وقد زارت مدينة جدة سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) واجتمعت بالشيخ محمد حسين نصيف، وأثنت على مكتبته.

أما الأستاذ جبريلي فله مؤلفات معروفة وأبحاث واسعة عن الإسلام، وعن العرب والعروبة في الماضي والحاضر، وله دراسات قيمة ذات صلة بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، ومن مؤلفاته «تاريخ الحضارة الإسلامية» وغيره. ومن الخطأ أن ننظر إلى جميع تلك المؤلفات والأبحاث له أو لأمثاله من المستشرقين نظرة تتطابق مع جميع ما نتوقعه ونعتقد ونجده فيما بين أيدينا من مؤلفات علمائنا، ولكننا ينبغي أن نعترف للمحسن بإحسانه فنقبله منه، ونُدع ما سوى ذلك مع محاولة إصلاحه متى وجدنا إلى ذلك سبيلاً، فزماننا كما قال أبو الطيب:

إِنَّا لَفِي زَمَنِ تَرْكِ الْقَبِيحِ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِفْضَالٌ
لقد اجتمعت بهذا المستشرق الكبير في أول شهر جمادى الأولى سنة ١٣٨٠ هـ (تشرين أول ١٩٦٠) حين قدمت (رومة) في تلك الفترة من الزمن، فكان مما زرت من معالمها (معهد الشرق للدراسات الإسلامية والعربية)، ثم دعيتني الأستاذة (ماريا نَلِينُو) لحفلة تعارف في هذا المعهد، فاجتمعت مع عدد من علماء الاستشراق، كان شيخهم إذ ذاك الأستاذ (دَلْفِيدَا)^(١) وعمره يقارب الثمانين عاماً، وهو من المختصين بمعرفة أنساب العرب، وكتب عنها في «دائرة المعارف الإسلامية» التي وضعها المستشرقون^(٢) وكان يبدو في صحة جيدة، وقد أخبرني عن تاريخ مولده، وأردف قائلاً: حينما قمت بوضع «فهرس مكتبة الفاتيكان» كنت أجد في تراجم العلماء أنهم من أطول الناس أعماراً، وقرأت

(١) انظر عنه مجلة «العرب» - س ٢ ص ٣٧٦ - .

(٢) عُرِّبَ من هذه الدائرة ١٥ مجلداً، إلى حرف العين.

كتاب «المعمرين» للسجستاني فوجدت الأعمار فيه تبلغ المئات من السنين، وأنا لا أريد المئات - قالها مازحاً - ولكنني أريد عمراً طويلاً وصحة جيدة.

وجرى بيني وبينه بحث مطول عن كتب الأنساب ذكرت خلاصته في رحلاتي^(١) وأشار إلى أنه قرأ بعض ما كتبه في مجلة «المجمع العلمي العربي» في الموضوع، وذكر لي أن من نوادير المخطوطات في مكتبة الفاتيكان الجزء الثاني من «قصص الأنبياء» تأليف عمارة بن وثيمة، فقلت: ولكن كتب قصص الأنبياء - كما يعرف الأستاذ، فأجاب: صحيح، صحيح، ولكن شهرة وثيمة - وهو صاحب كتاب «الرودة» - تجعل لمؤلف ابنه قيمة، من حيث القدم، وكيفية نشوء تدوين كتب القصص.

وممن اجتمعت بهم في ذلك العهد الأستاذ (جيوفاني أومان)، الأستاذ المساعد في جامعة نابلي، وقد أخبرني بأن المعهد يقوم بإعداد كتاب الإدرسي في الجغرافيا للنشر^(٢) وأنه يقوم بتحقيق الكتاب، بعد أن جمع المعهد من أصول مخطوطاته، تسع نسخ، وتحديثها في الموضوع، وممن اجتمعت به أيضاً الأستاذ جبريلي.

أرادت سفارتنا في هذه البلاد أن ترد الجميل لهذه النخبة من العلماء الذين عبروا عن إكرام بلادنا ممثلاً في حسن استقبال أحد مثقفيه، فكان أن دعيتهم لحفلة غداء في يوم الخميس، وكان من بين المدعوين الأستاذ جبريلي، وكان أستاذ الأدب العربي إذ ذاك في جامعة (رومة)، ومعاونه هو شاب مستشرق زل عني اسمه.

كان جبريلي إذ ذاك في الخامسة والستين، وكان يتحدث العربية بطلاقة وبدون لُكنة وكان من أكثر الحاضرين مرححاً وانشراحاً، وهو عضو مراسل

(١) «رحلات حمد الجاسر للبحث عن التراث» - ص ٢٧٣.

(٢) «نزمة المستشاق في اختراق الأفاق» وقد كمل طبعه في طباعة حسنة في تسعة أجزاء، في صفحات متسلسلة بلغت ١٠٩٠ طبع سنة ١٩٨٤م، من القطع الكبير بفهارسه المفصلة.

لـ (المجمع العلمي العربي) بدمشق، و (مجمع اللغة العربية) في القاهرة، وقد حدثني عن مؤسسة الأمير المستشرق الإيطالي (كايتاني)^(١) التي هي الآن قسم من مكتبة (المجمع العلمي الإيطالي) ورغبني في زيارتها، وكنت عذمت على السفر غداً - أي في يوم الجمعة سابع جمادى الأولى - ولكن لترغيبه لي قررت ألا أغادر هذه المدينة، قبل زيارة تلك المكتبة.

وفي صباح ذلك اليوم اتصلت هاتفياً بالأستاذ وأخبرته برغبتي بزيارة تلك المكتبة، وقد قال لي: إذا قررت زيارتها فأنا أحب أن أكون معك لأرشدك إلى مخطوطاتها.

لعل أجمل ما شاهدته في المكتبات التي زرتها في (أوروبا) قاعة الفهارس والمطالعة في (المتحف البريطاني) وحسن ترتيب الكتب وتجليدها في (المجمع العلمي الإيطالي) وفيه قسم يحوي (مؤسسة كايثاني للأبحاث عن تاريخ الإسلام وحضارته) في حجتين واسعتين، وشاهدت فيهما سيدتين، استقبلتني إحداهما بالسلام باللغة العربية، ثم قدمها إليّ الأستاذ جبريلي قائلاً: هذه الأستاذة (وتشا ولي ريري) أستاذة الأدب العربي في (جامعة نابلي) فقلت لها بعد أن رددت التحية عليها: أنا لم أستطع معرفة اسمك، لغرابة الكلمات

(١) هذه المؤسسة منسوبة إلى الأمير (ليون كايثاني ١٢٨٦/١٣٤٥هـ) وهو كما جاء في «الأعلام» للأستاذ الزركلي أمير إيطالي من أسرة عريقة معروفة في رومة منذ عشرة قرون. وقد درس هذا الأمير اللغات حتى أتقن العربية والفارسية وتخرج في جامعة رومة، وقام برحلات إلى الهند وإيران والشام، وألّف بالإيطالية كتاب «حوليات الإسلام» في التاريخ طبع منه ثمانية مجلدات، محلاة بالرسوم والخرائط المفصلة، انتهى فيها إلى سنة ٤٠ للهجرة، وكان يرجو أن يفسح في أجله ليكمل تاريخ القرن الأول للإسلام في ٢٥ مجلداً، وجمع جذاذات لتراجم عدد كبير من علماء المسلمين وأدبائهم في الأندلس، ونشر باللغة العربية كتاب «تجارب الأمم» تأليف مسكويه، مصدراً بمقدمات مفيدة ومذنباً بفهارس ضافية، وجمع مكتبة عربية عظيمة أضيفت إلى (المجمع العلمي الإيطالي) في حجتين متصلتين به، يطلق عليهما اسم (مؤسسة كايثاني للدراسات الإسلامية) وقد وضع الأستاذ جبريلي فهرساً لهذه المكتبة في مجلد لطيف.

الإيطالية على سمعي، فقالت: يعرفني العلماء العرب باسم (لورا) وأنا لست مسلمة، ولكنني أَلَفْتُ كتاب «محاسن الإسلام» وأَلَفْتُ كتاب «النحو العربي» وكانت تتكلم اللغة العربية الفصحى بطلاقة وسرعة ووضوح^(١).

أشار الأستاذ جبريُّلي إلى كتب مصفوفة في ثلاثة رفوف في أحد الصَّوَانات (الدواليب) قائلاً: هذه اشترت من اليمن بواسطة أحد التجار الإيطاليين، وهي غير مذكورة في الفهرس المطبوع، وهو فهرس يقع في كراسة لطيفة، وضعه الأستاذ جبريُّلي بالإيطالية.

بدأت أنبش تلك الكتب واحداً واحداً، والأستاذة (لورا) تساعدني بتقديم الكتاب عندما تراني أريد إعادة ما بيدي إلى مكانه، بعد أن تسألني: هل هذا الكتاب غريب أو نادر؟! وعندما أذكر لها اسم المؤلف تفتح كتاب (بروكلمان) وتقرأ ما كتب عنه، وقد أُظهِر لها جهلي عندما أطلع بعض المخطوطات، بالمؤلف أو عصره، فتوضح لي ما أجهله من ذلك. ومن ذلك كتاب «رسائل السيوطي» الذي قلت: إنه قيِّمٌ. فردَّت قائلة ما معناه. أغلب ما كتب السيوطي منقول.

وقد ذكرت ما وقع عليه نظري من تلك الكتب في الرحلة، وكان لمرشدتي بعض الآراء الصائبة تتعلق بالكتب التي أشرت إليها.

كان الأستاذ جبريُّلي معي تلك الأثناء منشرح الصدر مرحاً يكرر لي قوله: إن مثل هذه الزيارات العابرة لا تمكن الباحث من الاستفادة التامة، ويرغبني في

(١) هي الدكتور (لورا فيشيا فاغليري) أستاذة اللغة العربية وتاريخ الحضارة الإسلامية في جامعة نابلي. نشر كتابها باللغة الإيطالية المرة الأولى سنة ١٩٢٥ في رومة، ونشر باللغة الإنجليزية في نيويورك سنة ١٩٥٧م، وقد طبع باللغة العربية في بيروت سنة ١٩٦٠م باسم «دفاع عن الإسلام».

البقاء فترة أطول، وفي أن أزور معه (جامعة رومة) وأتحدث إلى بعض طلابه، ويحضر لي شيئاً من مؤلفاته وأبحاثه.

حقاً لقد خرجت من عنده، وكنت أتمنى لو أن لدي من الوقت ما يمكنني من البقاء للاستفادة من علمه، ومن أدبه، ثم لما مررت بمدينة رومة في شعبان سنة ١٣٨٥ هـ، اتصلت بالأستاذة (ماريا نلينو)، فأخبرتني أن الأستاذ جبريُّلي ليس في (رومة)، كما أخبرتني بأن (دلأفيدا) طريح الفراش، وأنه لا يقابل أحداً، لاشتداد مرضه، الذي توفِّي فيه، وبعد سنوات علمت بوفاة (ماريا).

* * *